من شواهد النبوة :

المتنبئون

للأستاذ على الجارى

لم يعد خافياً على من كان له قلب أن الشواهد على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أسطع من فلق الصبح ، ولكن لا بأس أن نسوق هنا شاهداً جديداً مر عليه أكثر الناس مؤرخين ، وقد سخروا منه حينا ، واستطابوا السمر به فى أحيان كثيرة ، ولكن ما أظن أحداً منهم — على مبلغ علمى — فطن إلى المعنى الأصيل ، أو كشف عن السر الإلهى الذى كمن فى دعوى المتنبئين . ولا شك عندى أن التنبؤ كان من الدلائل الواضحة على صدق النبوة ، وهل أدل على وجود الشمس من تضاؤل أشعة المصابيح أمامها ؟ وما كان هؤلاء المتنبئون إلا كالأعلام المنصوبة على رأس الطريق تدعو الناس إليه ، وتزعم أنها ترشدهم إلى النهج القويم ، فمن الناس من سلك ولكنهم لم يبعدوا حتى وجدوا الصخور والأشواك ، ومالا قبل لهم به من حشرات الأرض وأفاعيها . وحينذ استيقظت أحاسيسهم ، وأدركوا خطأهم ورجعوا إلى الأعلام فحطموها ، ولكن بقيت منها أشلاء تنادى كل سالك بأن الطريق ليست من هنا ولكنها من هناك ... هناك الطريق المستقيم الذى لا عوج فيه ولا أمت ، ولا أشواك ولا حشرات . ولقد ظهر المتنبئون فى الجزيرة العربية ظهور السراب الخادع ، فكان من العرب من وثق ببرهان عينيه ، وأيقن أنه السراب ، وإنما يخيل له ، وأن طريق الماء ليست إليه . ومنهم من انخدع — عن جهل أو عن علم — فسار ، ولكن بعد أن حفيت قدماه ، وتهكمت أعصابه ، ما وجد إلا سرابا يقول له واضحاً صريحاً : إنى لست ماء فالتمس الرى عند غيرى . وكان هذا السراب — لمن سار ولن لم يسر — شاهداً لا سبيل إلى الشك فيه على أن الماء فى غيره .. هكذا كان شأن المتنبئين ..

ومن عجيب هذا الأمر فى العرب أنه لم يدعه منهم من كان يظن أن يدعوه ، فقد كانت طبيعة الأشياء تقضى بأن يتنبأ رجل كأمية بن أبى الصلت ، فإنه هيأ نفسه لتلقى الوحى ، فدان بالحنيفية ملة إبرهيم ، وقرأ الكتب المقدسة وكره عبادة الأوثان ، وأخذ نفسه بالفضائل فحرم الخمر والزنا والميسر ، وخالط الأحبار والرهبان ، وتزيا بزيهم ، وأظهر التأله ، وما هى إلا غمضة عين وانتباهتها حتى يجيئه — زعم — الوحى ، فلما ظهرت النبوة فى قريش ، ونزل الوحى على محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، امتلأت نفسه حقداً وحسداً ، وصد عن السبيل ، وبالغ فى العداء للمسلمين ، وقاتلهم مع مشركى مكة ، وجعل يرثى من قتل من كفار قريش فى بدر ، فكان طبيعياً — وقد حرم النبوة — أن يدعيها ، فمنعته آلامها — على زعمه — ولكنه لم يفعل ، أو يتنبأ رجل كعامر ابن الطفيل فقد كان سيد قومه ، وآلى على نفسه ألا ينتهى حتى تتبع العرب عقبه ، فما كان له — كما حدث عن نفسه — أن يتبع عقب هذا الفتى من قريش . وقد وفد على النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان يضمر الغدر به ، وعرض معه أن يجعل الأمر له سنة ، ولنفسه سنة ، أو يجعل له الوبر ولنفسه المدر ، ولكن الرسول أبى ، فقال عامر : والله لأملأنها عليك خيلا جرداً ورجالا مردا ، ولأربطن بكل نخلة فرسا ، ولكنه — مع ما كان يحرص عليه من ملك العرب — لم يدع النبوة ، وإنما ادعاها قوم لم يكونوا على مقربة منها ، ادعاها مسيلمة بن حبيب ، وبعض كتب السيرة تحدثنا بأنه لما وفد مع قومه على رسول الله جعلوه فى رحالهم ليقوم بشئونها . وادعاها طليحة بن خويلد الأسدى ، وادعاها الأسود العنسى ، وادعاها لقيط بن مالك الأزدى فى عمان . ولم يحدثنا التاريخ عن واحد من هؤلاء قبل ادعائه النبوة بما يمكن أن يكون مؤهلا فيه لها ، عدا ما ذكروا من كهانة طليحة . ثم ادعتها امرأة ، ادعتها سجاح بنت الحارث التميمية ، فصح قول الشاعر :

لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاها وحتى سامها كل مفلس

ولم يخف هذا الأمر على أتباعها ، فقال أحدهم يسخر منها بعد أن تزوجت مسيلمة

أمست نبيتنا أنثى نطيف بها وأصبحت أنبياء الناس ذكرانا

والذى نستطيع أن نقوله فى كل هؤلاء (ليس بمتنبىء صادق ، ولا بكذاب حاذق) فان أحداً منهم لم يستطع أن يتقن دوره الذى قام به ، وأن يخدع الناس عن دعوته . نعم كان منهم الكهان الذين مرنوا على استهواء العامة ، وكان منهم من تعلم

الحيل ليموه بها على قومه ! فقد قال الزمخشري في ربيع الأبرار : قال الجاحظ : كان مسيلمة قبل إدعاء النبوة يدور في الأسواق التي بين دور العرب والعجم يلتمس تعلم الحيل والتيرنجات واحتيالات أصحاب الرقى والنجوم . اهـ . ثم جاء العصر العباسي فكان المتنبئون جماعة من الحمق ، ولم يكن لهم تأثير لا في العامة ولا في الخاصة ، وإنما هو الجنون ، فان لم يكن فالحمق لا ريب فيه .

فكيف — إذن — استطاع هؤلاء المتنبئون أن يسخروا أقوامهم في حروب دامية مع جيوش المسلمين ؟ وكيف استطاع مسيلمة — مثلا — أن يحشد أربعين ألفاً يقاتلون قتالا لا هوادة فيه ولا رفق ، حتى يقول فيهم بطل المسلمين خالد بن الوليد : شهدت عشرين زحفا فلم أرقوما أصبر لوقع السيوف ولا أضرب بها ولا أثبت أقداماً من بني حنيفة يوم اليمامة . وحتى يقول فيهم رافع بن خديج : خرجنا ونحن أربعة آلاف ، فانتهينا إلى اليمامة فننتهي إلى قوم هم الذين قال الله فيهم (ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد) . ولماذا صبر هؤلاء حتى دوخوا المسلمين ، وقتلوا منهم ألفاً وثمانمائة ، وضحوا من رجالهم بعشرين ألفاً ؟ ليس السر قطعاً تصديقهم بنبوة صاحبهم ، فما كانوا يحاربون في سبيل الدين ، وقد كانوا — أو على الأقل كثير منهم — على يقين من كذب هذا الادعاء . على أن هذا لم يكن شأن مسيلمة وقومه وحدهم ، وإن كان أكثر المتنبئين أتباعا — ولذلك سبب نحن ذاكروه متى انتهى بنا الكلام إليه — فقد كان وراء طليحة الأسدي نحو السبعمائة رجل ! وقبل أن نجيب على هذه الأسئلة نحب أن نذكر أن حركة التنبؤ تأخرت كثيراً ، ولم تظهر إلا في أخريات حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، ومنها ما ظهر بعد وفاته . وقد طال نظري في هذا الأمر ، ثم وجدت في مقدمة ابن خلدون ما يصح تعليلا ، قال بعد أن تحدث عن النبوة والكهانة ، وانقطاع الكهانة في عهد النبوة « فانما كان ذلك الانقطاع بين يدي النبوة فقط ، ولعلها عادت بعد ذلك إلى ما كانت عليه ، وهذا هو الظاهر ، لأن هذه المدارك كلها تخمد في زمن النبوة كما تخمد الكواكب والسرج عند وجود الشمس ، لأن النبوة هي النور الأعظم الذي يخفي معه كل نور ويذهب » وهذا ولا شك تعليل نفسي جميل ، فان النبوة بقوة سطوعها في النفس تخمد فيها كل حركة توحي بها الشياطين ، وتشعر النفوس معها بأنها مضروب عليها من كل نواحيها ، فلا تفكر في باطل — هذا النوع — ولا تأتيه ، ولكن هذا التعليل — مع ذلك ليس كل الحق في موضوعنا ، فاني لأرى أن تأخر ظهور التنبؤ كان مرجعه إلى أن العرب تركوا قريشاً تنازل النبي ، وتصارعه ، وكانوا هم على هامش المعركة ، فلما كان عام الفتح ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ورأى الأعراب أن الدعوة المحمدية تمكن لها بدأوا يفكرون في طريق يماثلون بها هذه النبوة التي ظهرت ، وكانت هناك أسباب أدت إلى ظهور حركة التنبؤ أواخر أيامه صلى الله عليه وسلم .

ثم نعود إلى الإجابة على ما قدمنا من أسئلة فنقول : إن ثلاثة أمور عظيمة هي التي دفعت بهذه العشائر إلى أتون الحرب ليس منها يقينهم بنبوات أصحابهم ، أولها ما جاء به أولئك المتنبئون من وضع كثير من أوامر الدين عن أقوامهم ، فقد رووا عن مسيلمة وضع عن قومه الصلاة ، وأحل لهم الخمر والزنا . القصة الموضوعة التي تصور لنا ما حدث بينه وبين سجاح التي أنه أصدقها بأن وضع عن قومها صلاتين مما جاء به محمد . وما يحدثوننا أن بني تميم لا يصلون صلاة الفجر ولا صلاة العشاء الآخرة لأنهما مهر فتاتهم . ويروى عن طليحة أنه كان يقول لقومه : إن الله ما يصنع بتمغير وجوهكم ، وتقبيح أدباركم شيئاً اذكروا الله ، واعبدوه قياما . على أن أهم ما في هذا الأمر أن المتنبئين أعفوا أتباعهم من الزكاة ، وهي السبب الأصيل الذي أدى إلى ارتداد العرب بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم . وتلك العصبية الجامحة التي كانت لا تزال تحتل نفوس العرب والتي تصورها لنا كلماتهم ؛ فقد رووا أن طليحة النمري اليمامة فقال : أين مسيلمة ؟ قالوا : مع رسول الله . فقال : لا ، أراه ، فلما جاءه قال : أنت مسيلمة ؟ قال نعم . قال : من يأتيه قال : رحمن . قال في نور أو في ظلمة ؟ قال في ظلمة ، قال طليحة أشهد أنك كذاب ، وأن محمداً صادق ، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر . ثم بقي مع مسيلمة حتى قتل موقعة عقرباء (كما في ابن الأثير) ، كما روى أن عيينة بن حصن لما أتى طليحة ، وكان بين غطفان وأسد حلف في الجاهلية وقال : إني لمجدد الحلف الذي كان بيننا في القديم ومتابع طليحة والله لأن تتبع نبياً من الحليفين أحب إلينا من أن تتبع نبياً